رسائل التعليقات للرصافي

« كلمة أخيرة »

للأستاذ دريني خشبة

وبعد ، فقد عرضنا على القراء فى كلمتنا الأولى عن هذه الرسائل آراء الأستاذ الرصافى التى يلحد بها فى الله وفى الإسلام والتى نقلتها الرسالة عن الأستاذ أمين الريحانى ، عن الرصافى سنة ١٩٣٥ ؛ ثم عرضنا فى كلمتنا الثانية طائفة من آرائه تلك ، أوردها فى كتابه الجديد الذى علق به على كتابى الدكتور زكى مبارك : التصوف الإسلامى والنثر الفنى ، ومن بين هذه الآراء إيمانه المطلق بوحدة الوجود وما ينبنى على هذه الوحدة من آثار أخلاقية هدامة ، ثم رأيه فى تأليف القرآن ، والأدعية (ومنها الصلاة) ، والبعث ، والجبر ، وتساوى المتضادات من خير وشر ، وتقى وفجور ، وترهب وخلاعة . ثم إنكاره للثواب والعقاب على النحو الذى جاء به الإسلام . ثم دعوته المسلمين إلى الأخذ بآرائه إن أرادوا أن يكون لهم مجد ، أو أرادوا بين الأمم مقاماً محموداً . ثم أثبتنا فى كلمتنا الثالثة فساد ما ذهب إليه الأستاذ من أن نظرية وحدة الوجود هى شىء من صنع الرسول الكريم ، لم يعرفها العالم إلا حينما جاء بها محمد . ثم ما كان من اهتداء متصوفة المسلمين إليها بعد محمد بقرن أو قرنين من الزمان . أثبتنا فى كلمتنا الثالثة فساد هذا الزعم لأن نظرية وحدة الوجود فكرة ترددت فى الفلسفة اليونانية ، فقد قال بها إجزنوفنس Xenophanes الذى كان يؤمن بالحلول ، وأشرنا إلى ما كان يزعمه هرقليطس من التقاء المتضادات وتساوى الخير والشر وجميع المتناقضات بناء على ذلك ، لأن التناقض فى زعمه ، هو فى نظرنا فقط ! وذلك وما قبله هو لباب نظرية وحدة الوجود ! وأشرنا كذلك إلى ما ذهب إليه أناجزاجوراس Anaxagoras من تعدد العناصر ووجود قوة عاقلة ـ ال Noös حالّة فى الكون متحدة به ، تتولى تحريكه وتنظيمه ـ ثم أتينا على ما انقسم إليه تلاميذ سقراط من بعده من حيث نظرة كل منهم إلى الفضيلة أو السعادة . ونشدانها ... فالكلبيون ينشدونها فى الجهل والزهد والتقشف والقورينيون ينشدونها فى اللذة ، واللذة الحسية بنوع خاص ـ وهو ما يذهب إليه معظم متصوفة المشرق ـ هداهم الله ـ والميجاريون ينشدونها فى التأمل الفلسفى ، ثم وقفنا من أفلاطون أمام ثالوثه العجيب : المادة ، والمُثل . والله ، وما كان من اضطراب أرسطو فى تصور ذات الله ، هل له وجود مشخص مستقل ، أو هو صورة مجردة معنوية ؟

استعرضنا هذه الآراء اليونانية لنثبت أن نظرية وحدة الوجود ليست شيئاً جاء به محمد أو تضمنه الإسلام ، لأنها إفك لم ينته الفلاسفة من شأنه إلى شىء يطمئن إليه قلب أو يؤمن به عقل ، ولأن الإسلام دين الفطرة ودين الاستقرار يأبى أن يسلم الناس لفوضى لاضابط لها ولاخير للأنام فيها ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم حين نهى الناس عن التفكير فى ذات الله ، وأمرهم بإدمان التفكير فى مخلوقاته ، كان الحكيم الأعظم الذى يهدى للرشد ويجنب الأمة مهاوى الضلالات ، وإن أخذنا إخذ رسول الله ليس دعوة إلى الجمود والحجر على حرية الفكر ، ولكنها دعوة ضد الباطل الذى ندعى إليه ولا خير لنا فيه ... بل هى تصرفنا عن الجد الذى تأخذ به أمم العالم نفسها إلى هذا العبث الذى يُضحك الدنيا بأسرها علينا ، ويجعلنا موضع سخريتها وازدرائها ... لقد أمرنا نبينا بالتفكير فى مخلوقات الله لنستثمر تفكيرنا فى مخلوقاته فى صنع مدنيتنا وتوفير سعادتنا ، ولو قد عرف رسول الله خيراً فى التفكير فى ذات الله لما ضن به علينا ، ولكنه أشفق على هذا العقل البشرى الذى لم يطّلع من أسرار الوجود إلا على أتفه مقدار لا يعتد به ... أشفق عليه من مثل هذا الضلال الذى انتهى إليه الفلاسفة من بحثهم فى ذات الله ... أليس حسبنا أن نعقل أن هذا الوجود الغالى الجميل لا يمكن أن يكون موجوداً بنفسه ! ألم ندرس علم طبقات الأرض وعلم الفلك وعلم الحياة وعلم النفس ؟ أى مقدار عجيب من المعرفة هدتنا إليه هذه العلوم ؟ أكل هذا السحر العلمى المعجز شىء لم يهدنا إياه إله حكيم قادر ؟ ثم هذه الوحدة الوجودية التى يهرف بها عقل المخرفون : هل لها عقل ؟ وهل ترى وتسمع ، وهل هى مادة

صرفة أو روح صرف ؛ أو مادة وروح ؟ ثم ما قيمة نظرية خائبة لا تفرق بين الخير والشر ، وبين الأبيض والأسود ، وبين التقوى والدعارة ، وبين الزهد والجشع ، وبين الفضيلة والرذيلة ، وبين السجود بين يدى الله ، وإكباب المرء على حيلته ؟! ما هذا البلاء الذى يدعونا الأفونون إليه ، ويزعمون أن عدم أخذنا به ووقوعنا فيه هو سبب تخلفنا وعلة تأخرنا ؟ ما ذا يريد هؤلاء ؟ أيريدون أن تكون الدنيا داراً واسعة شاسعة يعمرها قوم من المجاذيب ؟ ! هل فرغنا من استكناه أسرار خلق الله ، فلم يبق إلا التفكير فى ذات الله ؟ ! هل انتصرنا على أمراضنا فشفيناها ، وعلى مشكلات الفقر والجوع والجهل فمحقناها ، وعلى استئصال الشر من النفس الإنسانية فمنعنا الحروب وعالجنا الآفات ؟ ! هل عرفنا سر الكهرباء ؟ هل اهتدينا إلى (ذات !) المغناطيس و (ذات !) الضوء و (ذات !) أنفسنا فلم يبق إلا أن نهتدى إلى ذات الله ! وهل يعقل أن ندرس الهندسة الفراغية ونحن لا ندرى شيئاً عن الهندسة النظرية ، أو حساب المثلثات ونحن نخطئ الجمع والطرح !

أليس يكفى أن تكون هذه النظرية قائمة على ذلك الخيال الأخلاقى ليثبت أنها فاسدة ، وأنها لا بد أن تكون تعلة يتعلل بها المؤمنون لستر نواحى الضعف فى أدبهم المنهار ، وسلوكهم المريض ، وخلقهم المعتل ؟ إنهم مثل القورينيين من تلامذة سقراط ، ينشدون اللذة ، واللذة الحسية الخسيسة على وجه الخصوص ، وانغماسهم هذا الذميم فى الملذات هو الذى جعل أذهانهم تتبلد ، وأرواحهم تصدأ ، وتفكيرهم يسف ، فراحوا يوهمون هواهم أن الخير والشر سواء ، وأن التقى والدعارة صنوان ، وأن المصير واحد ، وأن سبب تأخر الأمم الإسلامية وتخلفها هو هذا الشغف الذى لا موجب له ، وهذا الفهم السيئ لما جاء به محمد من شريعة أخذناها بحرفيتها ولم نعبث بها فحورناها وأولناها ، وفهمنا ثلاثة أرباع هذا القرآن الكريم على أنه آيات تمثيلية يخوف بها الله ، فهو — سبحانه وتعالى عن هذا البهتان — يقصد بظاهرها الأميين ، ثم جعل لها باطناً لا يعرفه إلا الراسخون فى علم وحدة الوجود من الزنادقة الذين اتصلت نفوسهم بنفس إبليس الأكبر ، ولم تندمج فى الله ... أو فى الوجود الكلى كما يكذبون ويهرجون ويلفقون

وبعد أيضاً ...

فحسبنا أن نأتى على نظرية وحدة الوجود من جهتها الأخلاقية هذه لنراها تنهار من أساسها ، فنريح أنفسنا من تكرار ما قاله ابن حزم والشهرستانى ، وابن تيمية ، وابن القيم ، وأبو منصور عبد القاهر البغدادى فى توهينها ثم تكذيبها وتبيان زيفها ، مما هو مذكور مشهور ، ومما يسهل على كل قارئ أن يرجع إليه ليرى كيف حارب علماؤنا الأعلام تلك الفئة الباغية ... ثم نريح أنفسنا من الرد على المكذبين بالوحى وبالقرآن ، المتحللين من شريعة الله السمحاء التى يتخذونها هزواً ، ويعلوهم الغرور فيأبون أن يؤمنوا كما آمن السفهاء ، ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يفهمون

وحسبنا أيضاً أن ننبه إلى ما يقع فيه هؤلاء الأنجاس من أخس ألوان الحب الحسى والانحراف الشديد القذر فى هذا الحب مما نقرأ أخباره عن أئمتهم وأقطابهم ، مما أورد بعضه أبو عبد الله الزنجانى فى أطروحته ، وما نجد أخباره فى الكشكول وروضة المحبين وديوان الصبابة وتزيين الأسواق وتلبيس إبليس ويتيمة الدهر وكتاب الكنايات ... ودفاع الصديق الأعز الدكتور زكى عن الصوفية فى هذا الميدان — وهو من البقع التى ذكرت فى حديثى الأول — لن يغنيهم شيئاً — فقد شوى جلودهم فيما يتعلق باستنتاجاتهم الخبيثة فى التقاء المتناقضات وتساويها فى نظرية وحدة الوجود ، وقد هاجمهم غير مرة ، ولا سيما فى باب التجريد

وحسبنا أن ننبه مرة ثانية إلى أن وقوعهم فى الموبقات الحسية هو الذى جعلهم يلتمسون تبريراً لها بقولهم إن الشريعة للعوام والحقيقة للخواص أى لهم ، ورحم الله ابن القيم فقد